المجلة العربية، جامعة داكا
المجلد العشرون، يونيو ٢٠١٩ م

العلامة عبد الله الطيب وجهوده في خدمة اللغة العربية

د. عادل الشيخ عبد الله أحمد *

Abstract

Abdalla Eltayeb is one of the most distinguished Arabic encyclopedic scholars who served in all branches of Arabic language. This study tries to shed light on his biography, story, academic career and efforts in serving Arabic language by answering certain questions: who is Abdalla Eltayeb? what were his academic qualifications, and his contributions to the field of Arabic language? The study reveals the significant points of his life, for example, his family, joining the modern educational system in Sudan and his study in Europe. His exposure to European education system has a great impact on his later career. Due to his liberal education in European culture Abdalla Elatyeb was simultaneously conservative and modern which is clearly seen in his ideology, writings and research.

يعد العلامة السوداني عبد الله الطيب من أمراء علماء العربية الموسوعيين الذين قد خدموا اللغة العربية تأليفاً وتعليماً. تحاول هذه الدراسة التعريف به وبجهوده في خدمة اللغة العربية متبعة المنهج الوصفي التحليلي وذلك بالإجابة عن هذه الأسئلة: من هو عبد الله الطيب؟ وما حظه من العلم والثقافة، وبم ساهم في خدمة العربية؟ وقد تناولت الدراسة هذا الموضوع في النقاط التالية: نشأته وتكوينه العلمي، سيرته العملية، خدمته العربية في مجال التأليف، وجهوده التربوية. وتوصلت الدراسة إلى أن ظروف النشأة الأسرية والالتحاق بالمدارس الحديثة والدراسة في أوربا كان لها أكبر الأثر في تكوينه المعرفي. و ذلك

* نائب عميدة كلية اللغة العربية والحضارة الإسلامية، جامعة السلطان الشريف علي الإسلامية، بروناي
adil01@yahoo.com

في فكره اللغوي والأدبي والتربوي؛ إذ كان محافظاً، ولقح هذه المحافظة بثمار ما قد تعلمه من الثقافة الغربية. وهذا ما أهله ليلعب دوراً كبيراً في خدمة اللغة العربية والثقافة الإسلامية؛ إذ ساهم كثيراً في خدمة اللغة العربية تأليفاً وتعليما وفكراً.

نشأته وتكوينه العلمي

هو عبد الله الطيب محمد بن أحمد بن محمد المجذوب ولد في شمال الديار السودانية فى ٢٥ رمضان ١٣٣٩هـ — الموافق ٢ يونيو ١٩٢١م [١]. وكان السودان يومئذ مهيض الجناح تحت وطأة الحكم الإنجليزي الذي جاء بعد سقوط دولة المهدية؛ تلك الدولة الوطنية التي قد أسست بعد كفاح مرير ضد الاستعمار البريطاني. ثم سقطت مهيضة الجناح في أواخر القرن التاسع عشر.

تلقى عبد الله الطيب تعليماً أولياً تقليدياً في مسقط رأسه دامر المجذوب، حيث حفظ القرآن. ثم درس رواية حفص عن عاصم ورواية الدوري عن أبى عمرو وبها كان يقرأ.

انتقل بعد ذلك إلى كلية غردون التذكارية بالخرطوم، تلك الكلية التي أسست تخليداً لذكرى القائد الإنجليزي غردون الذي أطاح برأسه أنصار المهدية؛ فدرس بها علوم العربية وآدابها على أساتيذ جهابذة أعلام. منهم الشيخان الأمين إبراهيم (الطويل) والفكي بابكر؛ فنهل منهما العلوم الشرعية والعربية من قرآن وتفسير وفقه وحديث وأصول وفرائض ونحو وصرف وعروض وأدب، وفقه اللغة. وكلاهما يعدان من العارفين[٢].

يعرف العصر الذي ولد فيه عبد الله الطيب وترعرع، بعصر جيل ورثة الهزيمة. ويقصد بذلك هزيمة المهدويين في واقعة كرري. ومن ثم سقوط كافة الديار السودانية تحت الحكم الإنجليزي المصري. ولقد كان السودانيون يومها يشعرون بأسى وحسرة لسقوط بلادهم تحت نير المستعمر الكافر.

أما المستعمر المنتشي فقد بدأ سياسة تعليمية يهدف منها تخريج موظفين يعملون في سلك الدولة الجديدة وتربية جيل جديد يخدم الدولة الحديثة ويدين بالولاء لبريطانيا،

فأنشئت المدارس الحديثة. وقد " أوضح سير جيمس كري، أول مدير للتعليم في السودان، أن الهدف من المؤسسات التعليمية هو تعليم الحرف وشئ من المعرفة يمكن الأهالي من التعرف على أغراض الحكومة ونظام الإدارة وتدريب بعضهم لكي يتمكنوا من شغل الوظائف الصغيرة التي تحتاج إلى أن يملأها السودانيون" [٣].

ولما كان السودانيون يتوجسون خيفة من الأجنبي الجديد، حاول كثير منهم مقاطعته. ففي قطاع التعليم أحجمت عدد من الأسر من إرسال أبنائها للمدارس الحكومية باعتبارها تمثل خطاً تعليمياً مخالفاً لتقاليد البلد. فكان" التعليم المدني الحكومي آنذاك مرفوضاً من قِبل أهالي الريف السوداني الذين كانوا يعتبرونه مفسدة لأخلاقيات الصبية[٤]"

ويذكر الدكتور عبد الله الطيب أن أسرته كانت من الرافضين وذلك لولائها للدولة المهدية، إذا كان أهله من مناصريها. بيد أن مامور المركز وهو مصري الجنسية، وقد كان صديقاً لجدهم، قد نصحهم بأن يرسلوا أبناءهم؛ لأن المستقبل يتطلب توظيف هؤلاء الخريجين في الوظائف الحكومية. ولذا احتراما لهذا المأمور أُرْسِل عبد الله الطيب إلى الخرطوم للدراسة في كلية غردون[٥] .

لقد كانت كلية غردون الجسر الذي به عبر ما بين التعليم التقليدي إلى التعليم الغربي. وقد هيأ له هذا انتقالاً سلساً من نوعي التعليم المتباينين منهجاً ومحتوى. فقد صار يدرس في الخرطوم علوم اللغة والأدب والعلوم الإسلامية إضافة إلى المواد الحديثة من علوم، ولغة إنجليزية، وجغرافيا، وهي علوم حديثة لم يك له بها عهد قبلئذ.

يصف إدوارد سعيد طلاب كلية غردون في تلك الفترة بأنهم: " كانوا صبية في غاية الود والوفاء حيث تجدهم مبتسمين وفي كامل أناقة الهندام ولطافة خلق خاصة عندما تنظر إليهم وهم في جلاليبهم وعمائمهم البيضاء فهم من أبناء المزارعين وموظفي الحكومة والحرفيين وزعماء القبائل ومن أسر مختلفة. وكانوا أذكياء وشغوفين بالمعرفة والعلم. هؤلاء الصبية قبل ثلاثين سنة قبل الاستعمار كانوا يعيشون حياتهم التقليدية من غير أن تؤثر فيهم الأفكار الأجنبية فهم الآن يتلقون التعليم باللغة الإنجليزية ويتأثرون بسرعة بالأفكار الغربية"[٦].

ثم كانت النقلة الكبرى في حياة عبد الله الطيب، إذ ابتعث عام ١٩٤٨ م إلى جامعة لندن؛ فنال شهادة المعادلة للبكالوريوس ثم حصل على درجة الدكتوراه فى عام ١٩٥٠م وعمل هنالك أستاذا للأدب العربى من عام ١٩٥٠إلى ١٩٥١م.

لقد هيأت له هذه السبل المتباينة لتلقي المعرفة إتقان علوم الدين، واللغة، والتاريخ والثقافة الإسلامية، كما أتاحت له معرفة الحضارة الغربية، وآدابها. فلا غرو أن غدا عبد الله يحدث " عن كيتس، وبيتس، وإليوت، بنفس الدفق، والفخامة، التي يحدثك بها عن المعري، وأبي تمام، وأبي الطيب المتنبي، وأبي نواس. وبهذا المعنى، فعبد الله الطيب، ليس أديباً، وحسب، وإنما هو مفكر، عربي، مسلم، من الطراز الأول"[٧] .

كان الدكتور عبد الله الطيب حريصاً على أن ينال من كل علم بقسط . وشأنه في ذلك شأن الناقد الحاذق؛ فقد كان يهتم في دراسته بالجودة لا الكثرة، فكان كما يقول عنه تلميذه جعفر شيخ إدريس "ينتقي من كل علم في غير اختصاصه كتابا يقرؤه عدة مرات ويجيد فهمه. من ذلك أنه كان يكرر قراءة كتاب برتراند رسل في تاريخ الفلسفة الغربية، وكتاب توينبي المسمى دراسة للتاريخ، وهكذا. وكان كثير القراءة لتفسير الجلالين حتى إنه ليكاد يحفظه"[٨].

سيرته العلمية

للدكتور عبد الله سيرة حافة بالعطاء المهني في حق التعليم. فقد خدم العلم مدرساً وإدارياً ومفكراً في أمكنة وأزمنة مختلفة. وفي ما يلي ثبت بتدرجه وتنقله في سلم خدمة العلم منقولاً من سير الأساتذة في جامعة الخرطوم. فقد عمل مدرسا للغة العربية في السودانية ثم ارتقى في سلم التعليم ما بين الخرطوم ولندن إلا ان صار مديراً لجامعة الخرطوم ، ومديراً مؤسساً معهد الخرطوم الدولي للغة العربية إضافة إلى إدارته لعدد من المؤسسات التعليمية في نيجيريا والسودان.[٩]

خدمة العربية في مجال التأليف

ألَّف الدكتور عبد الله الطيب كثيراً من الكتب ، ونظم العديد من الدواوين الشعرية وألقي كثيراً منها في الإذاعة والتلفاز والمؤتمرات وكما شارك في الكثير من اللقاءات العلمية، وهي كما سبق في مجالات عديدة [١٠]ومن الممكن تصنيف إنتاجه العلمي إلى عدة مجالات كما يلي :

مجال الأدب

خدم اللغة العربية كان عبد الله الطيب شاعراً وأديباً وباحثا لغوياً ومؤرخاً أدبياً وناقداً من الطراز الأول. ولذا " مُنح جائزة الملك فيصل للآداب تقديراً لسفْره القيم «المرشد لفهم أشعار العرب وصناعتها» الذي أخرج في أربعة مجلدات قبل ٣٥ عاماً.

أ) عبد الله الطيب شاعراً

نظم الشعر منذ مرحلة مبكرة من حياته . ويذكر أنه حاول أن ينظم من صروف النظم أصنافاً منها المرسل الذي لا قوافي فيه، والدراما والملحمة. ويعلق على ذلك بأنه قد تجاوز في ذلك الأوزان المألوفة إلى أشياء اصطنعها اصطناعا. ويمضي في القول: " ثم بدأ لي أن هذا كله عبث لا يفصح بعواطف النفس وزوابعها، وإنما النفس بنت البيئة، وبيئتي العربية الفصيحة تسير على النحو الذي نرى من أوزان الخليل، وتخير المطالع والمقاطع[١١]"

يصنف أدبياً بأنه من أتباع المدرسة القديمة؛ إذ كان شديد الإعجاب بالشعر العربي القديم ويقدمه على الشعر الإنجليزي وسواه من الآداب الأوربية، ويرى أن الكثير من شعراء الفرنجة من أمثال دانتي، ومارفيل، ووليام بليك، والرومانسيين قد تأثروا بالشعر العربي. وله سبع من الدواين الشعرية، وعدد من المسرحيات. ولقد " كان الأثر الإغريقي واضحاً في مبنى النص الدرامي عند عبدالله الطيب ثم تعددت الإشارات إلى شكسبير عند إرشاده إلى كيفية إخراج النص، اتبع عبدالله الطيب نهج الدراما الثلاثية الأجزاء كما عند

الإغريق، ولم يتقيد عبدالله الطيب برباعية النص كما عند الإغريق، يساير المنهج الاغريقي كذلك دون كلل في النشيد الافتتاحي الذي يسبق كل منظر".[١٢]

ب) عبد الله الطيب ناقداً

يعد كتابه القيم المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها من أقيم كتب النقد العربي الحديث. وقد قدم له الدكتور طه حسين قائلاً: " هذا كتاب ممتع إلى أبعد غايات الإمتاع، لا أعرف أن مثله قد أُتيح لنا فى هذا العصر الحديث، ولست أقول هذا متكثراً أو غالياً أو مؤثراً إرضاء صاحبه، وإنما أقول عن ثقة وعن بينة ... الخ"[١٣]. ثم مضى يقول: "أنا سعيد بأنى أقدم إلى قراء العربية هذا الأديب البارع، لمكانه من التجديد الخصب فى الدراسات الأدبية أولاً، ولأنه من إخواننا أهل الجنوب ثانيا وأنا سعيد بتقديم كتابه هذا إلى القراء، لأنى إنما أقدم إليهم طرفة أدبية نادرة حقا لن ينقض الإعجاب بها، والرضى عنها، بمجرد الفراغ من قراءتها، ولكنها ستترك فى نفوس الذين يقرأونها آثاراً قيمة ... إلخ "[١٤]

لم يكن عبد الله الطيب ناقداً متبعاً، إنما كان مبتدعاً. يرى شاهين أن كتاب عبد الله الطيب (مع أبي الطيب) كان في حينه رؤية نقدية جديدة في شعر، وشخصية الشاعر الذي (ملأ الدنيا وشغل الناس) أبي الطيب المتنبيء ويقوم على أسلوب مبتكر في النقد يميزه ما بين أسلوب القدامى المحدثين، ويستخدم إلى حد كبير الطريقة السيكولوجية.

و يمضي قائلاً " جاء البروفيسور الطيب في سِفره القيم بقاعدة تصلح للتعامل النقدي العام مع الشعر حيث قال: " والصفاء الموسيقي والتجويد والأحكام كل ذلك لا يرتفع بالشعر كما ترتفع به الحيوية."[١٥]

له كثير من الآراء النقدية الجريئة. ومنها أنه كان يأخذ على الشعر الإنجليزي الذي يجيد معرفته وغيره من الشعر الأوربي التطويل وضعف النغم وكثرة التفصيل والتفريع مما لا حاجة إلى البيان الوجداني الشعري إليه. ولهذا كان يفضل الشعر العربي عليه .

له موقف متحفظ ورافض للشعر الحر؛ إذ كان يرى أن قوانين الشعر الأوربي لا تلزم، ولا يمكن أن تصلح للشعر العربي. وهذه الآراء كانت نتيجة دراسة وفهم للشعرين العربي والإنجليزي. وشاهد ذلك أنه كان قلقاً من بعض الشعراء العرب الجدد الذين يقلدون الشعراء الغربيين تقليدا أعمى دون بصيرة بالتراث ولا علم باللغة. كما كان ينتقد بعض الإصدارات التي كانت تروج لقصائد من يسمون أنفسهم بالشعراء الحداثيين وما يكتبونه من إنشاء يسمونه شعرا "قصيدة النثر."

يرى أن لنزار قباني ملكة جيدة جداً فى الشعر والنظم ولكنه يرى أنه قد سخرها للشيطان بدلا من أن يسخر الشيطان لها، وقد أبدى حسرة وأسى للأثر السيئ الذي قد تركه نزار. فقال: "حسبه الله فقد كان لشعره أسوأ الآثار على اتجاهات الفن الحديث فى البلاد العربية لأنه آثر عدم الصدق. والشعر العربي إنما يقوم على الصدق.[١٦]"

أثارت الحاسة النقدية عند عبد الله الطيب الانتباه إلى تأثر الشعراء العرب في الأربعينيات أمثال: السياب ونازك الملائكة، والبياتي، وصلاح عبد الصبور، وحجازي وغيرهم من الشعراء اللامعين والافتتنان بالشاعر الإنجليزي الأمريكي ت.س اليوت. فعلق على ذلك قائلاً : الفتنة بإليوت بين أدباء العرب المعاصرين كبيرة جدا . وفيها خطر على الأدب العربي. يقول: " فقد أتى على شعراء العربية الجدد حين من الدهر كان فيه الشاعر الإنجليزى تى. سي. اليوت، رائد نهضتهم الشعرية، وحادى فلسفتهم النقدية، فأعجبوا بأسلوبه فى النظم، وتناوله موضوع القصيد الذى هو فى نظره ليس إطلاقا للانفعال، ولكن هروب من الانفعال، وليس تعبيرا عن الشخصية، ولكن هروب من الشخصية.[١٧]"

ويرى أن هذا كان له أسوأ الأثر على الحركة الشعرية الجديدة، فالمعلوم أن إليوت لم يكن مبدعاً أصيلاً، ولكنه توكأ على مقولة الشعراء العرب الأقدمين التي تحصل عليه من خلال التراجم بواسطة المستشرقين. ولقد برهن عبد الله الطيب على ذلك وأثبت بالنصوص أن إليوت قد اعتمد على صورة لبيد فحاكاه فى معلقته. وقد ثبت لديه أنه قد سرق معانى

امرىء القيس وذي الرمة، وانتهج في نظمه طرقاً شبيهة بالقافية العربية. كما أنه قد استخدم الجناس الحرفى الذي لا يوجد في اللغة الانجليزية؛ فأصوله قد أخذت من البديع العربي. ومع هذا فهو يعد من المتفوقين ومن المبتكرين! . ومما ينسب إليه فى باب الابتكار مذهبه فى الاشارات والاقتباس. وهذا المذهب قديم فى اللغة الإنجليزية وأقدم فى اللغة العربية أفتن فيه من الجاهليين، على سبيل المثال زهير ونابغة بني ذبيان، كذلك الفرزدق وجريراً وذا الرمة وأبا نواس[١٨].

ج) جهوده في تدريس اللغة العربية

لم يك الدكتور عبد الله الطيب مؤلفاً نظرياً فقط، وإنما كان عاملاً في نشر العربية. فقد أختار عن إرادة منه وليس محض صدفة مجال التدريس. فقد حكى في كتابه (من حقيبة الذكريات) [١٩] أنه قد أوعز إليه أن يلتحق بقسم القضاء ليتخرج قاضياً؛ لأنها كانت وظيفة مرموقة وإنها ذات عائد مالي أفضل من التعليم الذي كان وظيفة غير مرغوب فيه. فعمل بالتدريس بأمدرمان الأهلية وكلية غردون وبخت الرضا وكلية الخرطوم الجامعية وجامعة الخرطوم وغيرها.

عمل أستاذاً للغة العربية بالمملكة المغربية بكلية الآداب جامعة سيدي محمد عبد الله بفاس. عيّن أستاذاً ممتازاً مدى الحياة (بروفيسور أميرى) بجامعة الخرطوم ١٩٧٩م. وعضواً عاملاً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة منذ مارس ١٩٦١م. ثم عمل مدرساً بمعهد الدراسات الشرقية بجامعة لندن. هذا بالإضافة إلى جهوده في تطوير المعاهد السودانية ومساهماته الفاعلية في تأسيس العديد من الجامعات في السودان ونيجيريا، وتدريسه في عدد من جامعات بريطانيا والسودان والمغرب ونيجيريا والكويت، وعضويته في العديد من المجامع اللغوية العربية، إضافة إلى رئاسته لمجمع اللغة العربية في السودان ومساهماته الأكاديمية في مختلف أنحاء العالم العربي وإفريقيا.

د) تفسير القرآن

هيأت الظروف العلمية التي تربى فيها عبد الله الطيب نضجاً علمياً أهله ليكون مفسراً لكتاب الله. وقد أعد برنامجاً إذاعياً كان يذاع من إذاعة ام درمان. وكان ذلك مع تلاوة المقرئ الشيخ صدّيق أحمد حمدون، ثم مع قراءة الشيخ إبراهيم كمال الدين، مسجّل بالإذاعة السودانية (مع الشيخ صدّيق — من ١٩٥٨ إلى سنة ١٩٦٩). وقد أكمل تفسيره، و جزء عمّ، جزء تبارك وقد سمع.

ومن آرائه في اللغة والأدب والثقافة

لم يكن الدكتور عبد الله الطيب متلقياً فقط للعلوم التقليدية أو الغربية وإنما كان حاذقاً وناقداً. بل وله كثير من الآراء الجريئة في اللغة والتربية والتاريخ والأدب. وهذه الآراء نجمت عن مطالعة وممارسة وتجربة. ولقد صدع بها في المحافل العلمية. ويحتاج المرء إلى دراسات مستوفية لا تستطيعها هذه الورقة التي تعني بالخطوط العريضة فقط من سيرة هذا العالم الفذ. وحسب هذه الدراسة أن تشير إلى ذلك. وستحاول أن تعطي أمثلة لبعض الآراء في اللغة والأدب والتاريخ.

١. مصطلح اللغات السامية

يرى الدكتور عبد الله الطيب أن اللغات التى يصطلح لها اسم السامية وهو اصطلاح فيه نظر. وأحسب أن أصله دينى سماوى. بعضهم قال إن لغة أبينا آدم وأمنا حواء عليهما السلام فى الجنة كانت السريانية. وهذا بعيد؛ لأن السريانية من متأخرات اللغات السامية زماناً. وزعموا أن المسيح عليه السلام كان يتكلم بها ، وقد دثرت العبرانية من مجال الكلام قبل زمانه .ولكنها بدأت فى ثوبها الفصيح بها فى توراة موسى عليه السلام وكانت اللغة الدائرة بين بني إسرائيل فى الكثير الغالب وغيرهم هى المصرية القديمة. وروى بعضهم أن آدم وحواء عليهما السلام إنما كانا يتكلمان العربية وقد رثى آدم ابنه المقتول فقال:

إن تغيرت البلاد ومن عليها * * * فوجه الأرض مغبر قبيح

وعلى هذا تكون اللغة العربية أقدم أخواتها اللاتى يقال لهن اللغات السامية وأحدثهن في نفس الوقت. ويعضد هذا المذهب قول صاحب القاموس المحيط : الكنعانيون أمة تكلمت لغة تضارع العربية، وهم أولاد كنعان بن سام بنى نوح عليه الصلاة والسلام[٢٠] . وجاء فى سفر التكوين وبنو حام كوش ومصرايم وفوط وكنعان[٢١].

وهؤلاء جميعاً كانوا ومازالوا أعداء بني اسرائيل اليهود فنسبوهم إلى حام ونفوهم عن سام. ويرى أن مرد هذا المصطلح إلى نعرة عنصرية عند اليهود والأوربيين معاً. واللغة العربية أشد اللغات السامية محافظة. وأحسب أن أكبر أسباب ذلك أن لها أصلاً سماوياً من شواهده سبقها وسبق أخواتها إلى تدوين القوانين كمجلة لقمان. قال تعالى: "وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ [٢٢]" وكانت مجلة لقمان فيما روت سيرة ابن هشام مع سويد بن صامت.

٢. الاستشهاد بالنحو

شغلت قضية الاستشهاد بالنحو العاملين في حقل اللغة قديماً وحديثاً وقد كانت هنالك كثير من الآراء المتقاطعة. أما عبد الله الطيب فيرى أن السبب هو خوف العلماء بالنحو من تعقب أسانيد الحديث، فيقع عليهم من الجرح والتعديل ما هم أحرص على ألاّ يقع عليهم في غير باب حاقّ درس الحديث.

٣. بين العامية والفصحى

نظر العلماء إلى العلاقة بين العامية والفصحى نظرات متباينة . ولقد عدها بعضهم انحرافاً عن السليقة اللغوية. ونظر إليها آخرون بعين الشك. يقول حجازي عن نظرة علماء اللغة إلى اللهجات العربية " فقد نظروا إلى هذه اللهجات العربية وقاسوها بمعيار اللغة الفصحى. واعتبروا أي اختلاف عنها خروجاً على النمط الصحيح وخروجاً على الضوابط وفساداً لغوياً لا يجوز أن يقبل ممن يندرج ضمن المثقفين[٢٣]"

ويرى الدكتور عبد الله الطيب ألا عداوة بين الفصحى والعامية وإنما هما متممتان لبعض . وما زالت العامية منذ الزمان القديم شقيقة للفصيحة مسايرة لها معايشة لها[٢٤]. واستشهد لذلك بمقال الجنود المقاتلين لعبد الله بن الزبير حيث ارتجزوا:

يا بن الزبير طالما عصينكا

وطالما عنيتنا إليكا

لنضربَنْ بسيفنا قفيكا[٢٥].

ويقول عن ذلك أيضا "وقد تحتوى العامية على عنصر من أصالة البداوة الأولى، يحفظ على اللغة جزالتها ومتانتها وجذور كينونتها، وأحسب أنى ذكرت فى بعض ما كتبت أو تحدثت به كلمة للسباعى بيومى رحمه الله ذكر فيها أنه قد يقع من بعض المتكلمين فى بعض أحياء القاهرة من عامة الناس ضروب من البلاغة الرقيقة— من أجل ذلك أرى ألا يتنكر أحد للعامية بل علينا أن نتعهدها بنوع من العناية والتقدير، وقد يحيط بها الآن خطر من ضروب وسائل الإعلام الحديث، فتخلص إليها هجنات تخالط طبيعة الأصالة التى فيها فتفسدها "[٢٦].

٤. تعليم اللغة

قال منتقداً الطريقة التقليدية لبدء تعليم اللغات: "الغالب على أساليب تعليمنا أن الرسمى منه يبدأ فى سن السابعة وهذا بالنسبة لتعليم اللغة في عمر متأخر. الواجب علينا أن نبدأ بتعليم اللغة فى الرابعة أو دون ذلك لأن أذهان الصغار مهيأة لتعليم اللغة فى تلك الحداثة. وخير ما يفتتح به تعليم اللغة القرآن. وعند غير المسلمين كتب مقدسة بالعربية الفصيحة إن بدأوا بها كان فى ذلك لهم فائدة كبيرة"[٢٧]

عبد الله الطيب تحت المجهر

يسلط هذا الجزء قليلاً من الضوء على جوانب متفرقة من شخصية الدكتور عبد الله لعلها تعين الدارس في فهم مزيد لشخيصته. ولعل الذين قد تتلمذوا عليه لهم إلمام أوسع. وحسبنا هنا متفرقات قليلات.

١. التواضع وحب العلم والتدريس

امتاز الدكتور عبد الله الطيب بمزايا خلقية قليلا ما تكاد في غيره منها: تواضعه، وحبه للعلم ومهنة التدريس. نقل عنه أصدقاؤه قوله: " لا أحب كلمة "شيخ" لأني لست شيخاً فالشيخ له تلاميذ، ولا أحب "دكتور" لأنها لقب كنسي، ولا أحب لفظة "بروفسير" فهى كلمة أجنبية، أنا مدرس للعربية فقط."[٢٨]

ويقول عنه تلميذه الحبر يوسف نور الدائم أبرز صفاته الوفاء لأهله ومجتمعه وتلاميذه، مبيناً أن عبد الله الطيب ولد ليكون معلماً باعتبار عبقريته في فن التدريس، وكان يمكن أن يكون طبيباً بارعاً، أو قاضياً متميزاً أو مهندساً، فقد كان محسناً في كل شئ. ويعرف عن نفسه هذه الصفة. وأبان أن ملكاته في الحفظ والمعرفة كانت فائقة وأحسب أنه لا يوجد بيت من الشعر قالته العرب إلا واطلع عليه أستاذنا عبد الله الطيب، إن لم يكن يحفظه، وقد كنت ذات يوم في المكتبة الكبرى بجامعة الخرطوم وعثرت على كتاب قديم ممزق من كتب اللغة العربية، وبينا أنا أقلب في ذلك الكتاب عثرت فيه على بيت لشاعر جاهلي مغمور يصف تمرة، فحفظت ذلك البيت وكنت أظن أنه لم يطلع عليه انس ولا جان.

وكان من عادة أستاذنا عبد الله الطيب أن يقيم مآدب للإفطار في رمضان يدعو إليها تلاميذه وأصدقاءه ومحبيه، وبينما كنا معه ذات يوم في إحدى تلك المآدب، مددت يدي لأتناول تمرة من الطبق، وأنا أتمثل بذلك البيت، فما كدت أكمل صدر البيت: (وكنتُ إذا ما قُدِّم الزادُ مولعاً)، فإذا بالأستاذ يكمل عجز البيت على الفور قائلاً: (بكلِّ كُمَيتٍ جلدةٍ لم توَسَّفِ[٢٩].

٢. أسرار العبقرية في شخصيته

المتأمل في سيرة الدكتور عبد الله الطيب لا يجافي الحقيقة إن نعته بالعبقري. ولعل كل من التقى به قد خطر به ذلك. فما العوامل التي تضافرت معاً فحبته تلك المكانة؟

يرى العالم البريطاني السير فرنسيس غولتون الذي يعد أول من درس العبقرية دراسة نظامية أن العبقرية هي جماع ثلاث خصال هي: الذكاء والحماسة والقدرة على العمل[٣٠].

من الواضح أن الاستعداد الفطري للعبقرية كان متوافراً فيه. وشاهد ذلك استيعابه لهذه العلوم وهضمها ومن ثم إنتاجها في مؤلفات كثيرة مع عمل دؤوب في خدمة اللغة العربية وكتاب الله درساً وتأليفاً. فالذكاء الذي قد تمتع به الدكتور يبدو بهذا واضحاً. ويشير هو نفسه إلى ذلك في كتابه من نافذة القطار حيث يذكر أنه كان من الأوائل في الكلية [٣١].

أما العوامل الأخرى التي ساهمت في توهج عبقريته فهي: النشأة الأسرية، الدراسة النظامية في كلية غردون، إضافة إلى الدراسة في أوربا.

فلا غرو نشأ عبد الله الطيب في أجواء أسرة المجاذيب الصوفية تلك الأسرة التي كان لها دور كبير في نشر العلم والجهاد في سبيل الدين.

أما الحماسة والقدرة على العمل التي كانت مكملة لهذه العبقرية، فتبدو ظاهرة في الإنتاج الغزير للدكتور عبد الله الطيب.

٣. سماته الأسلوبية

اتسم أسلوب الدكتور عبد الله الطيب بسمات أسلوبية مميزة. ولقد قدر لها أن تضمن في هذه الورقة باعتبارها قد تأثر بها كثيرون من تلامذة الدكتور عبد الله الطيب. ومن أولى هذه السمات الاستطراد الظاهر في خطابه المقروء والمسموع؛ فهو يحوم في الموضوع الواحد سبلاً شتى. وهذه ناجمة لعمري عن سمت الموسوعية التي قد عرف بها عبد الله الطيب. ولئن كان الاستطراد يبدو ممقوتاً، فإن استطراده كان مرغوباً ومحبوباً لأنه استطراد متسم بالدهشة والإثارة الممتعة.

ولذا فإن الناس على اختلاف مشاربهم ومساربهم الفكرية والعقلية كانوا يستمعون إلى حديثه في شغف وإعجاب شديدين. كما أن الاستطراق في منحى واحد يدعو إلى السأم والكلآبة. ولذا فإن انتقال الدكتور عبد الله الطيب في الموضوع الواحد جهات عدة كان يزيل الملل الذي يسببه التصنت والقراءة في مسار واحدٍ اقرأ قوله: " ومن محاسن العربية التى هيأتها بعلم الله وحكمته لحمل الرسالة التى بعث الله بها خاتم أنبيائه أنها سخية بالاشتقاق، غير كتوم لأصول لفظ كائنا ما كان وإن بدأ أن معنى أواخر مشتقاته قصي جداً عن أوائل أصوله. وقد أشار حتى معاصرى المستشرقين، والفضل ما شهدت به الأعداء إلى نحو من هذا المعنى حيث نبهوا إلى أن المجرد وهو لفظ دال على أمر معنوى محض أصل اتفاقها من الجريد وهو شيء عادى مخصوص. وقريب من ذلك فى أصل دلاله الاشتقاق قولهم أجرد وجرداء وقالوا الجراد؛ لأنه يترك الحقل أجرد. وبقال للمغنية جرادة لأنها تجرد سامعها مما عنده من المال ـ قال ابن أحمر:

كشراب قيلٍ عن مطيته ** ولكل أمر واقعٍ قدر
وجرادتان تغنيانهم ** وتلألأ المرجان والشذر[٣٢]

كذلك اتسم أسلوبه بالتقيد بالعربية الفصحى المقيدوة والمقعدة. وكان يختار الأسلوب الأنسب والأفصح. ولقد " كانت البلاغة والأصالة سمتين مميزتين لمنهج البروفيسور عبد الله الطيب، حيث ظل الرجل يقدم آراءه بأسلوب بهيج يأخذ بمجامع الألباب. وكانت له القدرة على مخاطبة الناس بمختلف شرائحهم الاجتماعية، وليس أدل على ذلك من إلهامه السودانيين بتفسيراته للقرآن باللغة العربية العامية من خلال الإذاعة السودانية وعلى مدى ٣٥ عاماً. كما كرَّس قدراً كبيراً من طاقته لإثراء الحياة الفكرية في العالم العربي وافريقيا.[٣٣] "

٤. عبد الله الطيب بين ثقافتين

لقد كان من حظ عبد الله الطيب وسائر أبناء جيله أن يقعوا بين رحي ثقافتين متباينتين: ثقافة إسلامية عربية وأخرى غربية علمانية. وبالطبع فإن الصراع بين ثقافتين يترك أثراً. ومن المشاهد أن كثيراً من أبناء جيله قد وقعوا أسرى للثقافة الغربية الوافدة. وفي الحقيقة

فإن فلسفة التعليم الحديثة التي جاء بها المستعمر إنما كانت تهدف لهذا؛ إذ ترمي إلى تربية جيل من أبناء المستعمرات لخدمتهم وحمل أفكارهم.

فما وقف عبد الله الطيب؟

يظهر الصراع جلياً في أهداف تكوينه العلمي؛ فلقد كان تعليمه إسلامياً عربياً محافظاً في مسقط رأسه التميراب غربي الدامر، وفي خلاوي أهله المجاذيب. وهي أسرة ذات باع في نشر الثقافة العربية الإسلاميه. فالهدف من التعليم الديني هو المحافظة على الهوية الإسلامية وتكوين الشخصية على هدى الإسلام.

من البدهي أن يكون للثقافة الغربية كذلك أثر في فكره ورؤيته . فقد أضافت جديداً لثقافته العربية الإسلامية وأتاحت له أن ينظر إلى الثقافة الغربية من خلال منظاره الشرقي، وكان بالطبع أيضا أن ينظر الفتى إلى الثقافة الغربية ويزنها بميزانه الشرقي.

لقد أهّل ذلك التاثير– ولنسمِّه هنا التلاقح الثقافي– على بناء جسر يسر له أن يعبر ما بين الثقافتين. وظهر ذلك جلياً في كتاباته وفكره الأدبي.

لقد كان أثر الثقافة الإسلامية فيه قوياً. وظل ملتزماً بها بل إنه قد سعى بكل ما أوتي من علم إلى بيان أثر الثقافة العربية الإسلامية في الثقافة الغربية. وراح ينظر في الأدب الغربي وبين مدى تأثره بالأدب العربي القديم.

قال في إحدى محاضراته إنى كنت ممن فتن بما فتنت به نازك الملائكة وسواها من بعد، ونحن تبنا قبل فتنتها فقد نظم القصيدة الحرة فى بداية الأربعينات كضرب من التجريب، ولكنه تخلى عن تلك التجربة عندما رأى أنها غير ذات نفع. غير أنه يعيب على المستحدثين الاستسهال، والجهل بالعروض والأوزان، والابتعاد عن جزالة اللغة ورصانتها.

وبلغ تمسك عبد الله الطيب بالتراث حتى في طريقة تدريس اللغة العربية. فهو يرى أن الطرق التقليدية التي كان يتبعها المسلمون قديماً أجدى من الطرق الحديث.

المراجع

١. موقع العلامة البروفسير عبد الله الطيب : http://www.sudadev.net/abd-alla/cv.php

٢. حمد، النور، عبد الله الطيب: صورة المثقف الأصيل، صحيفة سودانايل الإلكترونية http://www.sudanile.com/2009-09-03-11-03-40/259-2009-09-14-10-17-38/5714-2009-09-15-09-31-12.html

٣. شيخ إدريس، جعفر ، طالب يذكر طرائف من مناقب شيخه العلامة عبد الله الطيب http://www.jaafaridris.com/Arabic/aarticles/eltayeb.htm

٤. وثائق محاضرات سنوية عبد الله الطيب ، بجامعة الخرطوم– معهد عبد الله الطيب.

٥ . الجبور، مروان ، عبد الله الطيب.. مرشد السودان لأشعار العرب، إسلام أونلاين

٦. حجازي، محمود فهمي، علم اللغة العربية : مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٢م.

٧. الطيب، عبد الله ، من حقيبة الذكريات، دا ر جامعة الخرطوم للنشر ، الخرطوم ، ١٩٩٣م

٨ . الطيب، عبد الله، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي أولاده ، القاهرة، ١٩٥٥م

٩. شاهين، عبد الحي، د. عبد الله الطيب وترجل فارس من فرسان العربية، مجلة نوافذ شاهين. http://www.islamtoday.net/nawafeth/artshow-53-2796.htm

١٠. عجب الفيا، عبد المنعم، الأرض الخراب والشعر العربي القديم. في الرد علي الدكتور عبد الله الطيب http://www.sudanile.com/2008-05-19-19-50-02/431-2009-02-02-09-20-05.html

١١. قراءة في دواوين عبد الله الطيب الشعري، ثائق محاضرات سنوية عبد الله الطيب بجامعة الخرطوم، معهد عبد الله الطيب.

١٢. إدوارد عطية ، عربي يحكي قصته في السودان ، ترجمة سيف الدين عبد الحميد للعربية، عرض فاطمة عمر الطاهر http://www.ashorooq.net/net/index.php?option=com_content&view=article&id=18105:2011-08-23-19-06-46&catid=83:2009-05-09-07-23-12&Itemid=1118

١٣. عبدالله الفكي البشير ، النُّخْبَةُ السودانية: المزاج الصَّفْوي والصِّرَاع العقيم ، صحيفة سودانايل الإلكترونية http://www.sudanile.com/index.php?option=com_content&view=article&id=15449:------3-----&catid=950:2010-04-15-11-33-13&Itemid=55

١٤. فدوي عبد الرحمن علي طه، أستاذ الأجيال عبد الرحمن علي طه (١٩٠١–١٩٦٩م): بين التعليم والسياسة وأربجي، الخرطوم، مطابع دار عزة للنشر والتوزيع/دار جامعة الخرطوم للنشر، ٢٠٠٣ ،

١٥. الفيروز آبادي ، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، (ت) محمد العرقسوسي (ط٨) مؤسسة الرسالة

المراجع والمصادر

١ موقع العلامة البروفسير عبد الله الطيب
http://www.sudadev.net/abd-alla/cv.php

٢ الطيب، عبد الله، من حقيبة الذكريات

٣ عبدالله الفكي البشير ، النُّخْبَةُ السودانية: المزاج الصَّفْوي والصِّرَاع العقيم ، صحيفة سودانايل الإلكترونية
http://www.sudanile.com/index.php?option=com_content&view=article&id=15449

٤ فدوى عبد الرحمن علي طه ، أستاذ الأجيال عبد الرحمن علي طه (١٩٠١–١٩٦٩م) بين التعليم والسياسة وأربجي،

٥ الطيب، عبد الله ، من حقيبة الذكريات

٦ إدوارد عطية ، عربي يحكي قصته في السودان ، ترجمة سيف الدين عبد الحميد للعربية، عرض فاطمة عمر الطاهر
http://www.ashorooq.net/net/index.php?option=com_content&view=article&id=18105:2011-08-23-19-06-46&catid=83:2009-05-09-07-23-12&Itemid=1118

٧ عبد الله الطيب: صورة المثقف الأصيل ... بقلم: د. النور حمد، صحيفة سودانايل الإلكترونية
http://www.sudanile.com/2009-09-03-.html

٨ أ.د. جعفر شيخ إدريس ، طالب يذكر طرائف من مناقب شيخه العلامة عبد الله الطيب
http://www.jaafaridris.com/Arabic/aarticles/eltayeb.htm

٩ http://staffcv.uofk.edu/profaeltayeb%20/aeltayeb%20/ar/?%

١٠ http://www.sudadev.net/abd-alla/poem.php

١١ مروان الجبور، عبد الله الطيب.. مرشد السودان لأشعار العرب ، إسلام أونلاين

١٢ وثائق محاضرات سنوية عبد الله الطيب بجامعة الخرطوم– معهد عبد الله الطيب

١٣ المصدر السابق

١٤ المصدر السابق

١٥ عبد الحي شاهين، د.عبد الله الطيب .. وترجل فارس من فرسان العربية، نوافذ
http://www.islamtoday.net/nawafeth/artshow-53-2796.htm

١٦ هؤلاء لا أعرف عنهم كثير شيء ، صحيفة الرأي العام ٢٠ يوليو ١٩٧٣م

١٧ الطيب ، عبد الله الفتنة بإليوت خطر علي الادب العربي ، مجلة الدوحة ، اعداد : فبراير ، مارس، ابريل ١٩٨٢

١٨ نفسه

١٩ الطيب ، عبد الله ، من حقيبة الذكريات

٢٠ القاموس المحيط ، باب العين فصل الكاف ج ٣ ص ٨٠

٢١ سفر التكوين في الاصحاح العاشر رقم ٦

٢٢ سورة لقمان

٢٣ حجازي ، محمود فهمي ، علم اللغة العربية : مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ص ٢٢٤

٢٤ الطيب ، عبد الله ، من كلمته في مجمع اللغة العربي المصري

٢٥ المرجع السابق

٢٦ الطيب ، عبد الله ، من كلمته في مجمع اللغة العربي المصري

٢٧ الطيب ، عبد الله ، من كلمته في مجمع اللغة العربي المصري

٢٨ نصر ، عبد الملك محمد عبد الرحمن ، ذكرياتي عن العلامة عبد الله الطيب .. جامعة الخرطوم ، معهد االبرونسر عبد الله الطيب: في الذكرى الثامنة لرحيل العلامة ، الأحد ١٩ يونيو ٢٠١١م.

٢٩ مجلة أوراق ، الخرطوم تنتحب على العلاّمة عبد الله الطيب مرة أخرى
http://newkhartoumsd.com/awrag/index.php?option=com_content&view=article&id

٣٠ Galton, F. 1869. Hereditary Genius. London: Macmillan.

٣١ الطيب ، عبد الله ، من حقيبة الذكريات

٣٢ راءة في دواوين عبد الله الطيب الشعري ، وثائق محاضرات سنوية عبد الله الطيب بجامعة الخرطوم– معهدعبد الله الطيب.

٣٣ المرجع السابق